

التراث العربي الإسلامي في الكوميديا الإلهية لدانتي اليجري

ياسر فتوى

منجزات نادي جدة الأدبي

التراث العربي الإسلامي
في
الكوميديا الإلهية

لدانتي اليجري

ياسر فتوى

منجزات نادى جدة الأدبى

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

التراث العربى الاسلامى وتأثيره فى الكوميديا الالهية ـ لدانتى ـ

إن تراكم السنين وطول العهد ، واعتقاد الناس المطلق بملحمة الشاعر الالهي ـ دانتي ـ أنها فكر أوربى محض ، خشعت فى محرابها أجيال متتابعة من الناس لم يمنع أن يعلو صوت حق قوى يدك السمع ويهز القلب والمعتقد : لا ان صاحبكم لم يبتكر رائعته هذه ابتكارا وانما أخذها عن المسلمين عن عروبية الحرف وسمو الكلمة .

لقد أطلق هذه الصرخة الداوية شخص لا يمت للعربية بأية قرابة ، لا بصلة الرحم ولا القوم ، وليس هو الشرقي أو المسلم ، انه ـ ميجيل آسين بلاسيوس ـ قس كاثوليكي من الاسبان وهو عالم له مكانته : أستاذ العربية فى جامعة مدريد وعضو الاكاديمية الاسبانية فقد قرر هذا العالم بعد دراسة واسعة متخصصه امضى فيها ما يقارب نصف قرن أو يزيد ، باحثا منقبا فى التفكير العربى الاسلامى فى العصور الوسطى ، قرر أن أصولا عربية اسلامية قد كونت أسس الكوميديا الالهية ، تلك القصيدة التى باركتها الكنيسة وطبعت كل الثقافة الاوربية المسيحية فى العصور الوسطى بطابعها الخاص فكانت فى رأيهم ما يشابه (التنزيل المحكم ، والتعويذة الطهور) لذا كانت دعواه لها مالها من

صدى ولا غرو فى ذلك فهى لم تصدر عن احكام سريعة مرتجلة أو عن قول قومى متعصب حتى تقابل بالاستهانة ، انما هى شهادة شاهد من أهلها كان لها خطورتها الكبرى .

فما هى تلك المناهل التى صدرت عنها أحكام ـ بلاسيوس ـ وما هى الأسس التى اقيمت عليها دعواه حتى نسفت أو كادت رائعة دانتى نسفا ؟

لايضاح هذا الأمر كان على دراستى أن تنحو فى بحثها منحى خطين متوازيين متلازمين فى كل من مضامين الأفكار العربية الاسلامية فى شتى مصادرها ، والدانتيّة فى كوميدياه بمختلف أنواعها مع المقارنة لكل منهما لنصل الى حقيقة علمية أدبية ثابته ـ فأصولها فى التراث العربى الاسلامى : فى القرآن الكريم ، واشارته الى حادثتى الاسراء والمعراج وما نشأ عنها من أدب كبير يتمثل فى حكايات وقصص متنوعة ، ثم فى الرحلات الخيالية الى عالم ما بعد الموت التى جاءت على لسان أبى العلاء المعرى فى غفرانه ،(رسالة الغفران) وأبى عامر بن شهيد فى رسالته ـ التوابع والزوابع ـ ورسالة خاصة بالاسراء عثرت عليها مخطوطة فى المكتبة الظاهرية بدمشق ، وقد وجدت لها طبعة أولية صادرة عن جمعية دائرة المعارف العثمانية (حيدر أباد الدكن) سنة ١٩٤٨م تسمى « الاسراء الى مقام الاسرى » ولئن كان يضيق بى المجال ان افصل فى حادثتى الاسراء والمعراج العظيمتين فلابد لى ان المح عما كان لهذه الآيات الكريمة من أثر كبير عند المسلمين حيث كانت مجالا واسعا للبحث وحفزا حثنيا لمختلف

التفاسير ، اطلقت عنان الفكر عند علماء المسلمين الافاضل ، فحشدوا فى كتبهم كثيرا من الاحاديث النبوية التى فصلت الحادثتين فجاءت مفرقة فى الصحاح والمسانيد ، وكتب الشمائل النبوية ، من أمثال دلائل النبوة للبيهقى ، ودلائل النبوة لابى نعيم ، وكنوز الحقائق للمنادى ، والشفا ، فى التعريف بحقوق المصطفى للقاضى - عياض - ثم عيون الاثر لابن سيد الناس ، وكتب السيرة وأصول التاريخ الاسلامى كالطبرى وغيرها ، وتتفاوت هذه الأحاديث من حيث الصحة وعدمها ، ويتفاوت اهل سندها من حيث الجرح والتعديل ومن أهل العلم من يتحفظ منها كلها مكتفيًا بما ورد فى القرآن الكريم مؤمنا بأن الله سبحانه أسرى بعبده ونبيه محمد الى المسجد الاقصى ثم عرج به الى السماء حيث رأى من آيات ربه الكبرى ما رأى ٠

ولكن خيال الشعب المؤمن لم يشأ ان يتقيد بقيود أهل العلم ويلتزم بحدودهم فخلف لنا آثارا أدبية نشأت عنها قصص وحكايات شتى حلقت أو سفت بخيالها ، أبدعت أو جنحت فى قصورها ، فسقط غثها وغريبها فى قاع التيار الجارف ، وسمت فيها الروائع أدبا كريما خالدا لما فيه من تصور شعرى جمالى هو الغاية فى الخلق والابتكار ، وخلال القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى - وعندما اتسعت افاق الحضارة العربية الاسلامية وشمل رواق الاسلام امما كبرى ذات حضارة زاهرة ، أصبحت أقاصيص المعراج لونا أدبيا قائما بذاته فى الهند وايران والعراق والشام ، ثم فى الأندلس حشدت فيه شعوب المسلمين ايمانها ، وعمل ذوق الشعب على تشذيب تلك الحكايات ،

وتنقيتها فثبت فى مخيلته وكتبه عظيمها وتبدد سقيمها ، فوصل جيدها الى أوربا خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين وترجمت الى اللاتينية إذ ذاك وعرفت باسم كتب (الميراش) ويقول الدكتور حسين مؤنس أن لفظ ـ لوميلبراج ـ فى الفرنسية يراد به الخيال البعيد البعيد أو السراب وهو مأخوذ عن العربية من كلمة ـ المعراج ـ وهكذا كان ما كتب عن قصص المعراج وأدبه رياضة لقرائح المفكرين من أدباء العرب استطاعت أن تطرق بخيالها الصاعد السبع الطباق وأن تقحم فى تصورها عالم ما بعد الموت فتقدم أروع النماذج الحية عن العالم الاخر ، وذلك فى رحلات خيالية يلتقى فيها الشاعر أو الأديب بمن يريد من أهل الشعر والنثر المشهورين من الناس ، وقد تمثلت هذه الرحلات بأعظم رسالتين عربيتين : أولاهما فى المشرق فى صميم بلاد الحضارة فى معرة النعمان وهى ـ الغفران ـ لأبى العلاء المعرى ، والثانية فى المغرب فى صميم بلاد الحضارة أيضا فى الاندلس وهى ـ التوابع والزوابع ـ لأبى عامر أحمد بن أبى مروان بن شهيد القرطبى ـ ففى رسالة الغفران نجد الشاعر يتصور نفسه فى زيارة الى عالم غير ارضى ، لا هو بالجنة ولا هو بالنار ، وإنما هو وجود آبد أو انتظار طويل ، وفى هذا العالم يلقى نفرا من الناس يعقد معهم حلقات أدبية وتدور أحاديث الأدب بينه وبينهم ، وهو فى الغالب حديث ساخر فيه عبث بمن يتحدث عنه ، ودعابة ورثاء لحاله ، فميدان الرحلة فى رسالة أبى العلاء مدائن ليست كمدائن الجنة ولا عليها النور الشعشعانى وليس اناسها أطيافا أو أرواحا بل هى أجسام دنيوية

وحياتها دنيوية ، وفى رد المعرى على رسالة ابن القارح نجده يجعل هذا الرجل يقوم برحلة فى عالم البقاء راكبا جملا كريما من جمال الجنة خلق من ياقوت ودر فتذكر بعض تفاصيل البراق الذى حمل محمدا صلي الله عليه وسلم من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ويجعل هذا الرجل يصل الى الجحيم فيرى ابليس مضطربا فى سلاسله ، الى غير ذلك من الصور المختلفة والحوار الأدبى الرائع الذى لا حصر له ٠

ـ أما رسالة ـ التوابع والزوابع ـ فقريبة من رسالة الغفران وان لم تصل الى شأوها وقد كتبت فى العصر نفسه قريبا من الزمن الذى أملى فيه أبو العلاء رسالته الغفران وقد قيل قبلها بعشرين عاما أو أقل ، وصاحبها أبو عامر المتوفى سنة ٤٢٦ هـ الموافق ١٠٢٤ ميلادى ، فنان شاعر ، ذو ملكة اصيلة استطاع بها أن يصف لنا رحلة الى عالم الأرواح (ارواح الشعراء والكتاب) فان لكل أديب موهوب تابعا يلهمه بديع أفكاره وزابعا يلقى فى خاطره السيىء منها وفى هذه الرسالة نرى أبا عامر يتجول فى وادى الجن ويلقى شعراء كثيرين وأكثرهم من رجال الفكر الأندلسى ليستمع الى أشعارهم وليعرض آراءه فيهم وينتقدهم ويسخر منهم ويرفع نفسه فوق أكثرهم ٠

وهكذا نجد فى العالم الاسلامى شرقه وغربه قصصا رائعة ذات صور فنيه ، رفيعة تعبر عن أدب خاص فى الصعود الى السماء انتقلت أخيرا الى بلاد أوربا ، وعرفها كثير من الناس أما عن طريق ترجمات مباشرة أو نقول متناثره :

ففى القرن الثانى عشر ابتدأ الفكر المسيحى فى أوربا يتغير

ويتشكل نتيجة للهدوء النسبي وللتطور الطبيعي وللتأثر بالفلسفة اليونانية التي كانت الكنيسة قد وقفت في سبيلها ، والتي بدأت بافلاطون وانتهت الى أرسطو ، وقد ساعد فلاسفة العرب على تقريب هذه الفلسفة اليونانية الى العقل الأوربى بفضل حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية فى أسبانيا وايطاليا على الخصوص ، فضلا عما قدموه من نتاجهم الفكرى فى الشرق والغرب • وفى القرن الثالث عشر ـ عصر العلم ودوائر المعارف ظهرت ثمرات الفكر الوسيط باتجاهاته المتنوعة ، فقد نادى الغزالى مثلا بالايمان ، بينما آثر ابن رشيد العقل والمنطق فى سبيل الوصول للمعرفة ، وظهرت نزعة قوية تساير ما وجد من قبل للتوفيق بين العقل والدين ، وأسهم فى ذلك ابن رشد وابن ميمون وأفاد ـ البرتو ـ من شروح ابن سينا وابن رشد لأرسطو ، وحاول أن يكمل فلسفته بمستكشفات العلم واستخدام الفلسفة فى فهم اللاهوت ، كذلك تأثر القديس ـ توما الاكوينى ـ زعيم الفلسفة المدرسية بروح العصر ، وقام بتنصير فلسفة أرسطو وجعلها ملائمة لتعاليم الكنيسة ، وان كان قد خالف ابن رشد وعارضه فى بعض نزعاته العقلية ، ومن الشخصيات البارزه فى هذا العصر ، الامبراطور (فردريك الثانى) من أسرة (هوهنشتاوفن) فى نابلى وصقلية ، فقد كان واسع الأفق متعدد الجوانب وقد حاول توحيد أوربا والسيطرة على البابوية فلعنه البابا واعتبره أسوأ من الشيطان والتقى برجال الملك الكامل فى الشام عام ١٢٢٩م لا للحرب والقتال بل لعقد معاهدة تجاه أعدائها من المسيحيين وتعتبر هذه نقطة تحول فى العقلية الاوربية فى

عصر الحروب الصليبية • كان فردريك عالما يجمع حوله العلماء وتعلم العربية ، وتأثر بآراء ابن رشد وسماه أهل العصر ـ أعجوبة الدنيا ـ كما سماه دانتى بالرجل العالم وقد كان الأدب يساير تطور العصر فى شتى اتجاهاته ، فنشأت مدارس أدبية وشعرية ، وانتقل منهـا شعـر المدرسة الصقلية الى مدرسة بولونيا التى اتخذت لهجة تسكانا اداة لها وهى التى ستصبـح اللغـة الايطـالية وكان من شعرائهـا ـ دانتـى الليجرى ـ•

حياة دانتى :

ولد دانتى فى فلورنسا فى أواخر مارس عام ١٢٦٥م وعمد باسم دورانتى ، ومن المعانى التى تقال فى تفسير اسمه ـ حامل الجنـاح الباقى على الزمن ـ وقد ماتت أمه ثم أبوه ولما يكمـل دانتـى دور الشباب بعد ، أحب دانتى فى سن مبكرة ـ بياتريتشي ـ إبنة أحـد أثرياء فلورنسا ولكنها تزوجت (باردي دى باردي) الثرى ثم ماتت فى شرخ الصبا فحزن دانتى لموتها حتى مرض • انصرف دانتى الى الدراسة وتلقى التعليم السائد فى عصره ، واختلف الى دير الفرنسيكان فى فلورنسا ، ودرس تعاليم المسيحية على يد الرهبـان ودرس بعض الوقت فى جامعتى بادوا وبولوينا كما اطلع على التراث اللاتينى الأدبى وخاصة على مؤلفات فرجيل وألم بتراث اليونان والشرق بطريق غير مباشر ، وعكف على دراسـة القانـون والطـب والموسيقـا والتصـوير والنحت والفلسفة والطبيعـة والـكيمياء والفلك والسياسـة والتـاريخ واللاهوت ، ونشأت صلة ود وصداقة بين دانتى ، وبعض البارزين فى

فلورنسا ومن هؤلاء (برونيتو لاتيني) الذى سوف يجيء ذكره ويهمنا جدا أمر صلته به ؛ ثم اشترك فى الحياة العسكرية فى صفوف أنصار الامبراطور ضد أنصار البابا وأبلى خاصة فى معركة (كامبا لدينو) ثم دخل الوظائف الكبرى إذ أرسلته فلورنسا فى سفارات ومهمات الى بعض المدن الايطالية ولما اعتلى الحكم أعداء دانتى حكموا عليه بالنفي ومصادرة أملاكه وفى عام ١٣٠٢ أصدر حكم عليه باحراقه حيا إذا وقع فى يد الحكومة وكان ذنبه الحقيقى معارضة سياسة البابا (بونيفاتشو) الثامن ومجابهته له ، والدفاع عن مصالح فلورنسا فلقى جزاء ذلك حكم النفى والقتل ، وحرم عليه الى الأبد رؤية وطنه الذى هو كما يقول ـ نصف الحياة لمن له قلب ـ وفى المنفى عرف دانتى عمدة (أريتزو) الذى أهدى إليه الجحيم ، كما أهدى الفردوس إلى أمير (فيرونا) (جراندى دلاسكالو) الذى كان يعجب بالعبقريات وفى سنة ١٣١ وجد الاستقرار والتقدير فى ظل أمير رافنا الذى عهد اليه بالعمل أستاذا أو سفيرا وأصبح لدانتى فى رافنا أصدقاء وتلاميذ ، أصيب دانتى بالملاريا أثناء عودته من مهمة دبلوماسية إذ مر بمنطقة مستنقعات موبوءة فوصل رافنا مريضا ولم يحتمل جسده وطأة الحمى فأسلم الروح فى ليلة ١٣ ـ ١٤ أيلول عام ١٣٢١ ، وفى تلك الليلة لم ينم ولداه وابنته ولم ينم امير رافنا ومريدوه وأصدقاؤه وأعلن (جويد ونوفلو) الحداد العام ، والقى رثاء يليق بمقام الشاعر العظيم ودفن فى كنيسة (براتشافورتى) للفرنسيكان ، أدركت فلورنسا بعد أكثر من نصف قرن خطأها الكبير وما اقترفته فى حق ابنها العبقرى من الظلم

والجحود ، وأرادت أن تكفر عن خطيئتها فعهدت الى ابنى دانتى فى تدريس الكوميديا ونشرها بين الناس فذاعت تدريجيا وانتشرت فى ايطاليا كما حاولت أن تنقل رفاته الى فلورنسا لتدفنه فى وطنه فى حفل مهيب فرفضت رافنا وحاولت ، مرات اخرى فى عهود مختلفة كما تدخل البابا ليو العاشر المدينتشى فى القرن السادس عشر لنقل جثة الشاعر الى فلورنسا كما سعى المسعى نفسه الرسام العظيم (ميكلاانجلو) لتحقيق الغرض ذاته ، ولكن كل المساعى لم تنجح ، فاكتفت فلورنسا بتشييد قبر رمزى لدانتى فى كنيسة سانتاكروتشى سنة ١٨٢٩ يعلوه تمثال جالس للشاعر وقد توج باكليل الغار والى يمين التابوت تمثال سيدة واقفة ترمز لايطاليا وتشير بيدها الى الكلمات المحفورة فى أسفل التمثال والتى تقول (مجدوا الشاعر الاعظم) وهى كلمات دانتى نفسها والتى قالها لفيرجيلى والى يسار التابوت تمثال سيدة اخرى ترمز الى فلورنسا وهى منحنية أسفل التابوت وبيدها اكليل الغار الذى كانت تود أن تضعه الى رأسه حيا ، وهى والهة تبكى وستظل دائما تبكى جزاء ما ارتكبت فى حق ابنها العبقرى .

كتب دانتى ـ الوليمة ـ فى الفترة بين ١٣٠٦ و١٣٠٨ على وجه التقريب والكتاب ، كتاب علم ومعرفة ثم كتب الملكية بين ١٣٠٩ ـ ١٣١٣ وقد تأثر فى كتابه هذا بفلسفه أرسطو والكتاب المقدس وتوما الاكوينى وبابن رشد العربى ثم كتب الرائعة الخالدة ـ الكوميديا ـ وهو لفظ مأخوذ عن اليونانية القديمة بمعنى (أغنية تغنى بلغة العامة) وتجرى على اللسان دون تكلف وسماها ناشرها فيما بعد سنة ١٥٥٥ واسمه بوكاتشو ـ الكوميديا الالهية ـ كما كانت تعرف فى عهد دانتى

بأنها ـ قصيدة بسيطة ذات موضوع بسيط ولغة شعبية متداولة تنتهى بنهاية سعيدة وترجمت للعربية بمعنى الملهاة ـ وهى نوع من الشعر فريد من ناحية بنائها العام ومضمونها الشامل المنوع وهدفها فى الدنيا والآخرة ويمكن أن تسمى ـ الدانتيادة ـ على غرار تسمية ـ الالياذة ـ والاينادة لهوميروس وفرجيلي ـ وتنقسم الى ثلاثة أناشيد : الجحيم والمطهر والفردوس ، والجحيم مقسمة الى مدخل وتسع حلقات والمطهر مقسم الى تسعة أفاريز والفردوس الأرضى ، ثم الفردوس السماوى ومقسم الى تسع سماوات وسماء السموات ، ويتكون كل نشيد من ثلاث وثلاثين انشودة يضاف اليها مدخل الجحيم فتصبح كلها مئة أنشودة وتبلغ الجحيم (٤٧١٠) أبيات ، والمطهر ـ ٤٧٥٥٠ والفردوس ٤٧٥٨ بيتا ومجموعها (١٤٢٣٣) بيتا ، والكوميديا رحلة خيالية الى العالم الاخر استغرقت سبعة أيام وبدأت فى مساء الخميس ليلة الجمعة فى ٧ نيسان عام ١٣٠٠م وانتهت يوم الخميس فى ١٤ نيسان يقول الأستاذ حسن عثمان رحمه الله مترجم وباحث ومدقق الكوميديا : انها تمثل فى جحيمها الشباب الحر الطليق المتكبر الثائر ، وتصور الفطرة والغرائز الانسانية لاشباع ميولها ، وهى الخطيئة والعذاب والمأساة والحياة الدنيا ٠ ويمثل مطهرها : التجربة والنضج والفكر والتوبة والتطهر والأمل ٠ ويصور فردوستها : الكهولة والطهارة والصفاء والحرية والخلاص والنور الالهى ٠ والكوميديا كلها مرآة الحياة وقصيدة الانسانية الكبرى وهى فن رفيع أخلاقى يهدف الى تغيير الانسان واصلاح المجتمع وقد باركتها الكنيسة ودرسها الرهبان ٠

والمكان الذى تدور فيه حوادث الملحمة هو الكون بأسره كما كان يتصوره علماء الفلك فى القرون الوسطى ، فالأرض كرة ثابتة تحيط بها الكواكب السماوية التى تدور حولها وهى تقسم الى نصفين : النصف الشمالى المؤلف من اليابسة مركزه مدينة القدس وفيه هوة عميقة هائلة شبيهة بالقمع تصل الى أعماق الكرة الأرضية حيث يقطن ابليس ، والنصف الثانى الجنوبى يتألف من بحار واسعة ، ارتفع فى وسطها المقابل تماما لمدينة القدس جبل الاعراف او المطهر - وأما الجنة فهى خارج الأرض وأعلى من الكواكب المحيطة بها أشبه بوردة روحية متفتحة فى سماوات كلها ضياء وصفاء ..

بداية الملهاة :

تبدأ الملهاة بتصوير غابة مظلمة ضل فيها دانتى سبيله ، فرأى جبلا أضاءت الشمس قمته فاتجه نحوه فاعترضت طريقه وحوش ثلاثة ، فتولاه رعب شديد ولكن ظهر أمامه شبح فرجيل شاعر اللاتين ، الذى عطف على دانتى وأزال مخاوفه ، وأشار الى أنه لابد من اتباع طريق آخر حتى يرى فى الجحيم نفوس الاثمين تلقى صنوف العذاب وتقدم فرجيل وتبعه دانتى .. وعلى باب الجحيم رأى دانتى حشدا من عراة الأجسام قد أطبقت عليهم الحشرات تدمى وجوههم فيختلط دمهم بدمعهم ويسيل على الأرض فتلتهمه الديدان عند أقدامهم .

ثم عصف زلزال عنيف وهبت ريح عاتية تخللها برق خاطف ووجد دانتي نفسه على حافة وادي العذاب السحيق ، وحال الظلام دون أن يرى أعماقه • دخل الشاعران الحلقة الأولى من حلقات الجحيم وفيها رأى دانتي عظماء العالم القديم ـ هوميروس ـ سقراط ، افلاطون ـ مع ابن سينا وابن رشد ، وفي الحلقة الثانية شاهد العشاق والآثمين وفي الثالثة كان وحش ذو ثلاثة رؤوس يعوى فوق رؤوس المعذبين ويلتهمهم • وفي الرابعة صادف شاعرنا البخلاء الى اليسار والمترفين الى اليمين يسيرون في نصف دائرة وهم في اتجاهين متعارضين ويدفعون بصدورهم اثقالا من الصخر ، حتى اذا التقوا عير كلا الفريقين صاحبه بمثالبه • ثم يتراجع الفريقان بأثقالهم وهكذا الى الأبد •

ثم هبط الشاعران الى الحلقة الخامسة حيث رأى دانتي من سادتهم سرعة الغضب في الدنيا يتضاربون بالرؤوس والصدور والاقدام ويمزقون بعضهم بعضا بأسنانهم وأخبر دانتي ان تحتهم الكسالى الذين يتنهدون طوال الوقت ويرسلون فقاقيع الهواء الى سطح مستنقع كريه ويبتلعون الوحل والدنس وتتحشرج في حناجرهم الكلمات ، وبعد ان اجتاز الشاعران الحلقة السادسة حيث قامت مقبرة اتباع ـ ابيقور ـ ووصلا الى الحلقة السابعة ظهر امامها نهر تغلى فيه الدماء وقد غرق فيه الحكام الطغاة حتى عيونهم ـ وفي الحلقة الثامنة كان الرهبان الذين آثروا المال على التقوى يعذبون عذابا شديدا • وفي نهاية الوادي السحيق تستعصى القوافي على دانتي لوصف ابليس حيث شاهده بوجوهه الثلاثة يحمل تحت كل وجه جناحين وهبط فرجيل ودانتي فوق

جسم ابليس يستعينان بشعره وكأنه درجات السلم ، ثم بدا لشاعرنا أنه قد تحول من الهبوط الى الصعود وتساءل كيف انقلب ابليس رأسا على عقب وكيف صارت الشمس من المساء والى الصباح فأوضح له فيرجيل انهما اجتازوا مركز الارض وانتقلا من نصف الكرة الأعلى الى نصفها الأدنى وكان ذلك صبيحة يوم الأحد عام ١٣٠٠ الموافق لعيد الفصح واشرق الفجر وأطلق دانتي صيحة الفرح عندما رأى السماء ولما تزل النجوم تتلالأ فيها بينما كان البحر يرتعش تحت لمسات خيوط الشمس ٠

وعند قاعدة جبل الاعراف ، أذن لهم بالصعود (الرواقي كانون) حارس المكان واستطاع دانتي أن يميز ثلاث زمر من الأرواح التائبه التي تأمل بلوغ الفردوس ، الاولى منها ، كانت قد أهملت واجباتها الدينية ، والثانية كانت المنيه فأجأتها قبل أن تتوب ، والثالثة وهي مؤلفة من الأمراء والملوك قد صرفتها مشاغلها الدنيوية عن الاهتمام بشؤونها الروحية ، تلك هي المنطقة الأولى التي تشمل طبقتين في جبل الاعراف ، ثم كان الليل وغفا دانتي ، فحمله ملاك وارتقى به الجبل حتى بلغ بابا كبيرا نقش عليه بالسيف كلمة ـ الخطايا السبع : وهي الغطرسة ، والحسد ، والغضب والكسل والبخل والشره ، ثم اللذائذ المادية ، وكان على دانتي أن يتطهر من هذه الخطايا جميعها أثناء ارتقائه الجبل ، كما كان يشاهد مختلف صور عذاب الآثمين الذين لابد لهم من المعاناة حتى يتطهروا ليقيموا في الفردوس مع الأبرار الصالحين ٠ وعندما وصل الشاعران الى قمة الجبل حيث امتدت غابة

وارفة الظلال تلك كانت جنة الارض ، وهنا قال فيرجيل لدانتي انه سوف يتركه فى رعاية من هو أجدر منه بالصعود الى مدارج الفردوس الى (بياتريتشي) التى أحبها والتى ماتت فى شرخ الصبا فتهبط من الفردوس لتساعده فى اتمام رحلته الى جنات النعيم حيث الصفاء والنور الالهى والنجاة ٠

وفى يوم الأربعاء فى ١٤ نيسان سنة ١٣٠٠م وجد دانتي نفسه على قمة جبل الاعراف مطهرا من خطيئاته جميعها وفجأة اعشى النور بصره وغمره شعور بالفيض لم يستطع أن يصفه إلا بكلمة التسامى ، فأدرك أنه قد ابتعد عن الأرض ، ويتابع عروجه فيصل الى سماء القمر فيشاهد فيها أرواح النادمين ندامة أبدية وتتخذ الأرواح منذ هذه السماء فصاعدا صورا انسانية ، ثم ابتدأ من سماء عطارد فيبدو الأتقياء لدانتي كتلا من نور تتقد بصفاء الحب الالهى وصادف شاعرنا فى هذا الكوكب عطارد أرواح الذين قاموا بجليل الأعمال منهم (جوستنيان الامبراطور ـ الذى جمع القوانين الرومانية وفى كوكب الزهرة ـ فينوس ـ شاهد اولئك الذين غفر لهم عشقهم للجمال المادى لأنهم استطاعوا أن يتحولوا عنه ويرتقوا الى تعشق الجمال الروحى كما تقول نظرية افلاطون ٠

أما الشمس فهى مسكن الفلاسفة والحكام الذين استلهموا أفكارهم من نور الهى وفجروا طاقاتهم الفكرية الكامنة كما تقول نظرية ارسطو ، وكما شرحها ابن رشد حول الفعل والقوة ، وقد تجمع هؤلاء الفلاسفة حلقات تسبح بحمد الله ، أما الذين استشهدوا فى

سبيل الايمان فمأواهم المريخ وغيرها • ثم رأى شاعرنا سلما من نور يصعد من مركز الكوكب زحل ويغيب فى الفضاء وعلى هذا السلم صعدت أرواح الفقهاء الذين قضوا حياتهم الدنيوية فى التأمل والزهد وابتداء من السماء الثامنة المحيطة بالنجوم ينتقل دانتى من أبحاثه الأخلاقية والروحية الى أبحاث دينية وصوفية محضة فيطرح عليه القديسون فى هذه السماء اسئلة دقيقة حول الايمان والأمل والمحبة وفى السماء التاسعة حيث تظهر مجموعات تسع من الملائكة تشرح له بياتريتشى عقيدة الكنيسة فى موضوع الخليقة وطبيعة الملائكة وأخيرا يرتقى دانتى الى تلك الوردة اللامتناهية التى صبا اليها منذ بدء الملحمة فيتصور السيد المسيح وقد جمع فى شخصه الطبيعة الالهية والطبيعة البشرية ويتخيل الخالق وكأنه مجموعة المثل العليا التى تحدث عنها افلاطون • وهنا تنتهى الملحمة ويعود الشاعر من وجده وقد غيرت قلبه محبة شاملة سيطرت على رغباته وارادته وهى قبس من ذلك الحب الالهى العميم الذى يدير الكون ويسير الشمس والنجوم •

وقد حفل المطهر بالموسيقا الشعرية إذ تسود الأخوة والمحبة والتآلف بين المتطهرين الذين يحدوهم جميعا الأمل فى الخلاص وفى رؤية الله ، ففى باب المطهر سمع دانتى ـ اللهم لك الحمد ـ وفى الانشودة الخامسة ترتل الأرواح فى قلب النار المستعرة ـ إلهى ياعظيم الرحمة ـ وتصبح الموسيقا الشعرية الهية رويدا رويدا حين يقترب الشاعران من الفردوس الأرضى ـ طوبى لأتقياء القلب ، تعالوا يا مباركى أبى ـ وقوله وفى الهواء المتألق انطلقت نغمة رخيمة فحملتنى غضبتى العادلة

أن ألوم حواء المتهورة وفى الانشودة الثلاثين ينـادى سليمان الحـكيم ـ تعالى من لبنان ياعروسى ـ فيجيبه حشـد من الملائكه (تبـارك الآتى) ثم يسمع دانتى مزمور ـ اللهم ان الأمم قد دخلوا ميراثك وغيرها ٠٠ فكانت موسيقاه الشعرية وألفاظه الالهية مصـادر وحـى والهام لعباقرة الفن وأساطين النغم فى العالم الغربى على مر الزمـن الذى تلا دانتى فكم من سيمفونية أو لوحة أو صورة وضعت مستوحاة من كلمات دانتى الشعرية وصوره ٠

وفى أوائل القرن العشرين هذا كان راهب مستشرق أسبانى هو (ميجيل آسين بلاسيوس) الذى أسلفنا الحديث عنه يدرس الفلسفة الاسلامية فى هدوء الرهبان وصبر أهل العلم وكان الرجل موسـوعيا فمضى يدرس صور المعراج الاسلامى ولم يشك وهو يقرأها فى أن هذه لابد أن تكون أصلا من أصول دانتى فى الكوميديا الالهية ٠ ثم أخذ آسين تفاصيل صور الجنة والنار وأرض الاعراف الواردة فى القصص الاسلامية كلها صورة صورة فوجد أن المطابقة لا تقتصر على الصور العامة فحسب بل تتعدى ذلك الى التفاصيل الصغيرة ، بل هنـاك كلمات وتعبيرات عربية دخلت ملحمـة دانتـى بمقابلاتهـا الايطـالية الدقيقة فقد وجد هذا الرجل أن التشابة يتم بين الخطوط العريضة لمخطط كلا الرحلتين ، رحلة المعراج والكوميديا ففى كليهما نجد بيت المقدس هو المحور الذى يدور حوله العالم العلوى كله ٠ وفى كليمهما أيضا تقع جهنم تحت موقع بيت المقدس وفى أدنى دكاتها نجد مقام ابليس فى المعراج ، وسجن لوتشيفر ـ (أي ابليس) فى الكوميديا ـ

وفوق موقع بيت المقدس يضع دانتى سماء الالوهية وتضع الحكاية العربية (موضع رب العرش) فيه · والاطار العام للقصتين واحد ، فقد عرج محمد صلى الله عليه وسلم فى صحبة جبريل ، ودانتى يطوف بعالم ما بعد الموت بصحبة الشاعر فرجيل اولا ، ثم بياترتيشى حبيبته فى عالم الفردوس ويرسم دانتى بياترتيشى رسما مقتبسا من صور الملائكة كما تصفهم قصة المعراج ·

هذا وقد دأبت فى تقصى بحث ذاك التشابة بايجاء مما ورد عن علاقة الكوميديا ومترجمها حسن عثمان رحمه الله ـ فوجدت كثيرا من المشابهات سأذكر أهمها محاولا ايجازها ما استطعت الى ذلك سبيلا :

فى الجحيم :

فى الانشودة الثالثة منه يقول دانتى : وهناك رأيت شيخا أبيض ذا شعر عتيق يأتى فى سفينة نحونا وهو يصيح (ويل لكما ايهاتان النفسان الخبيثتان) لا تأملا فى رؤية السماء أبدا انى آت لاقودكما الى الضفة الأخرى فى الظلمات الأبدية فى النيران والجليد ·· وقد جاء فى القرآن الكريم أن خزنة الجحيم أو الزبانية أصحاب النارهم ملائكة ، ففى سورة المدثر ـ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ـ وفى الانشودة الرابعة فى الليمبو وهو جزء من المطهر على حدود وادى العذاب السحيق نجد التطابق هنا يصل الى درجة التطابق الحرفى وكلمة لمبو مأخوذة من لمبوس اللاتينية والتى تعنى الحافة أو أطراف الثوب والتى تقابلها فى العربية الاعراف حيث تفسر هذه فى معاجم اللغة اطراف الثوب والنسيج ويضع دانتى فى اللمبو اناسا لا يستحقون

عذاب النار ولا نعيم الجنة : فيقول دانتي ـ انهم لم يأثموا واذا كانت لهم فضائل فهي لا تكفي لانهم لم ينالوا التعميد الذي هو باب العقيدة المسيحية واذا كانوا قد عاشوا قبل المسيحية فانهم لم يعبدوا الله كما ينبغي ، وأنا نفسي واحد منهم • وقد وضع دانتي في اللمبو مشاهير العالم منهم سقراط وافلاطون وديموقراطيس وجالينوس ومنهم ابن سينا وابن رشد الذي وضع (التفسير الكبير) والذي تأثر به دانتي في العذاب والنعيم الروحي عن طريق ـ البرتو الكبير وتوما الاكويني • كما وضع غيرهم الكثير الى أن يقول وفي جانب آخر رأيت صلاح الدين وحيدا ويعني به صلاح الدين الأيوبي الذي أثار إعجاب العالم المسيحي بشجاعته وفروسيته وتسامحه وسعة أفقه ، ووضعه في هذا الموضع لا يعني عدم تقدير دانتي له ، وبالعكس لقد ابدى اعجابه به ومجده على طريقته بوضعه في اللمبو مع حكماء العالم وعظمائه وأبطاله والذين تمنى أن يكون هو نفسه في زمرتهم في الحياة الآخرة •

ويقول الدكتور حسين مؤنس في هذه المشابهة (وسبق أن وضعت الحكاية العربية كسرى انو شروان في الاعراف لفضله وعدله رغم كفره وعدم ايمانه) وقد جاء في القرآن الكريم من سورة الاعراف (وبينهما حجاب وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ، ونادوا اصحاب الجنة ان سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار ، قالوا : ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين) •

هذا وفى تفاسير أحاديث المعراج نقرأ أن أصحاب الاعراف قوم استوت حسناتهم وسيأتهم وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة فضرب بينهم بسور له باب : باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ·

وفى الانشودة الخامسة هبط الشاعران الى الحلقة الثانية من الجحيم ، فوجدا عند مدخلها « مينوس » قاضى الجحيم الذى يعترف له الآثمون بما ارتكبوا فيحكم بارسالهم الى الموضع الذى يناسبهم ، وعندما يرى مينوس دانتى يقف عن عمله الخطير ويخاطبه قائلا (انت يا من تأتى الى موئل الالآم ، احترس إذ تدخل هنا واحذر من تثق به ولا يخد عنك اتساع المدخل فيقول له فرجيل لا تعطل رحلة خطها له القدر ·· وفى التراث العربى يلقى محمد صلى الله عليه وسلم مع جبريل مالكا خازن جهنم وحارس الجحيم ، كما ورد فى قصة المعراج ، وكما روى مسلم عن أبى هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى مالكا خازن جهنم فابتدأه بالسلام ونظر الرسول فى النار فاذا قوم يأكلون الجيف قال من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال هؤلاء من يأكلون لحوم الناس) رواه الامام أحمد باسناد صحيح كما قال ابن كثير فى تفسيره ·

فى الانشودة السابعة ابتدأها دانتى على لسان بلوتوس بكلمات غير مفهومة قائلا بصوته الاجش ـ يابى ساتان الا بى ـ حاول بعض النقاد تفسيرها على أنها لغات مختلفة ، ويرى عبود أبو راشد أنها مأخوذة من العربية ومعناها ـ باب الشيطان الى بى بمعنى تابعا

النزول ٠٠ وقد قسم دانتى جحيمه الى تسع حلقات وطبقات ثم افاريز ودركات وقد جاء فى القرآن الكريم فى سورة ابراهيم (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا انفسهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم الأمثال)٠ وقد ورد فى التراث الاسلامى تقسيم جهنم الى سبع طبقات واحدة تحت الأخرى ، ومن ذلك مثلا : جهنم للمحمديين ، واللظى للنصارى والحطمة لليهود والسعير للصابئة وسقر للمجوس والجحيم لمشركى العرب والهاوية للمنافقين :

مراتب النار بالاعمال تمتاز
وليس فيها اختصاصات وانجاز
قال الجليل لاهل الحق ينبيهم
يا ايها المجرمون اليوم فامتازوا

كما جاء التقسيم نفسه الى ادراك وخنادق فى مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى ٠

وفى الانشودة السابعة جاء فى وصف من غلب عليهم الغضب : يقول دانتى : رأيت قوما عرايا غلبهم الطين فى ذلك المستنقع ، كلهم عرايا ذوو وجوه غاضبة يتضارب هؤلاء لا باليد وحدها ، ولكن بالرأس والصدر والقدمين وبأسنانهم مزقوا أنفسهم إربا إربا وبعضهم تحت الماء يتنهدون ويملأوون بالفقاقيع هذا الماء عند السطح ، يقولون وهم لاصقون بالوحل ٠ (كنا بائسين فى الهواء الحبيب الذى تسعده الشمس ، ونحن نُخزّن فى هذا المستنقع الأسود ، يتحشرج هذا اللحن فى حناجرنا إذ لا نستطيع قوله بألفاظ كاملة) ٠ وقد جاء فى

التراث العربى الاسلامى ما يشبه بعض هذا فى عذاب السكارى بشرب الطين والأقذار كما جاء فى حاشية السمرقندى فى كتاب مختصر التذكرة للامام القرطبى ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لشارب الخمر (يسقيه الله طينة الخبال ، قالوا يا رسول الله ، وما طينة الخبال ؟ قال صديد أهل النار والدم والقيح ٠٠ وفى الانشودة الرابعة عشرة : أورد دانتى صورة لعذاب أهل النار فى الحلقة السابعة والدائرة الثالثة منها قائلا ـ وفوق كل الرمل الضخم أمطرت فى تساقط بطىء ندف كبيرة من النار ، كما يسقط الثلج على المرتفعات من دون رياح ـ وقد جاء فى عذاب قوم لوط ايضا ما يشبه هذا العذاب فى سورة الاعراف (وامطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) وفى سورة هود فى عذاب قوم لوط أيضا ، وردت الآية الكريمة التالية ـ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) وفى الانشودة الثامنة عشرة هبط الشاعران الى الحلقة الثامنة ، وكانت مقسمة الى وديان وخنادق وكانت على هذه الاودية والخنادق بعض الجسور عبرها الشاعران ٠

يقول دانتى : عبر فرجيلى الجانب الأيسر وسرت من ورائه ، وذات اليمين رأيت بؤسا جديدا وعذابا غير معروف وجلادين جددا زخر بهم الخندق الأول ٠ وفى التراث العربى الاسلامى قول بعض العلماء فى وصف السراط المستقيم قوله : يظهر يوم القيامة للأبصار على قدر نور المارين عليه فيكون دقيقا فى حق قوم وعريضا فى حق آخرين ويصدق هذا الخبر قوله تعالى (نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم) وانما قال

بأيمانهم لأن المؤمن فى الآخرة لا شمال له ، كما أن أهل النار لا يمين لهم .

وفى الانشودة العشرين ، رأى دانتى مشهدا عجيبا من العذاب إذ التوت رؤوس المعذبين الى الخلف وساروا الى الوراء وبللت دموعهم فلقة الارداف . فقد جاء فى القران الكريم فى عقاب من لم يؤمنوا بكتاب الله فى سورة النساء قوله تعالى (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لقنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا).

وفى الانشودة الحادية والعشرين وردت صورة للعذاب فى القطران إذ يغطس المجرمون فى قطران مغلى يعاد تغطيسهم بخطـاطيف كلما حاولوا الخروج وقد جاء فى القرآن الكريم عقاب المجرمين فى سورة ابراهيم (وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الاصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ما كسبت ان الله سريع الحساب) .

فى الانشودة الخامسة والعشرين يقدم لنـا دانتـى صورة لعـذاب اللصوص بالزواحف فيقول : عقدت الزاحفة جسمهـا على جسـم اللص ، ثم انشبت أنيابها فى كلا الخدين ، لم يتعانق لبلاب شجرة أبدا كما لف الوحش الرهيب أعضاءه حول أعضاء اللص والتصقا كما كانا من شمع ساخن وامتزج لوناهما ، وقد جاء فى الحاشية المسماه : قرة العيون ومفرح القلب المحـزون ـ لأبـى الليث السمرقنـدى فى هامش المختصر فى تذكره القرطبـى ، حول عقـاب مرتكبـى الزنـا

وشاربى الخمر تستقبلهم الزبانية بمقامع من حديد يضربونهم بها ثم يدفعونهم الى منازلهم فى النار فلا يبقى عضو حتى تلدغه عقرب وتنهشه حية مدة أربعين سنة ، وتوجد صورة صغيرة تمثل عذاب هؤلاء الاثمين بالأفاعى والزواحف والنيران فى التراث الاسلامى وهى الصورة رقم ١٣ التى أوردها أنريكوشيرولى - فى كتابه عن المعراج وهى مأخوذة عن مخطوطة تركية وضعت فى هيرات عام ١٤٣٦ وقدمت الى شاه روخ بن تيمورلنك وهى فى المكتبة الوطنية فى باريس ٠

- جاء فى الانشودة الحادية والعشرين : قول دانتى : خرج الشياطين من تحت الجسر ووجهوا للشاعرين خطاطيفهم ولكن صاح بهم - لا يكن أحدكم شريرا - وهى أدوات لتعذيب الآثمين ترادف المقامع التى هى (عصى حديدية) وقد جاء فى القرآن الكريم فى سورة الحج - (هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد كلما ارادوا أن يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق)٠ يقول القرطبى مسندا قوله لكل من الحسن وابن مسعود (انه ما فى جهنم من واد ولا مقمع ولا غل ولا سلسلة الا واسم صاحبه مكتوب عليه ٠

- فى الانشودة السابعة والعشرين يسمع دانتى صوتا صادرا من شعلة النار فيسأل عنه فيجيبه انه من الرهبان الكرديليين وقد طغاه القسيس الأكبر - البابا بونيفاتشو الثامن - وقد وصفه أنه أمير الفريسين المنافقين الجدد الذين شابهوا الفريسين فى عهد المسيح ،

وأعطاهُ صفة النفاق لأنه لم يحـارب مع المسيحيين المخلصـين ضد العرب المسلمين متأثرا دانتى بذلك بروح العصر السائدة فى اوربا فى عصر الحروب الصليبية ، وكان السلطان المسلم الذى استولى على عكا هو الاشرف خليل ابن قلاوون سلطان دولة المماليك البحرية عام ١٢٩٠ ـ ١٢٩٣ ـ وهذا البابا عدو دانتي السياسى الشـخصى وهـو الذى امر باحراقه حيا ، وهو المرتشي الخائن ناهب الكنيسة وهـادم الامبراطورية وهو وصمة عار فى جبين البشرية ، فوضعه دانتى فى هذا المقام من النار ، ولكنه يأسف فى مواقف اخرى فيقول : ان لكرسى البابوية حرمة يجب أن يحافظ عليها مهما اساء شخص البابا نفسه ٠ وهذا سمو أدبى انسانى فريد من نوعه ٠

ـ وفى الانشودة التاسعة والعشرين مر دانتى على آثمين يتعذبـون بطريقة جديدة بخمش وجوههم بأظافر من نحاس ٠ وقد جاء (فى معـراج المصطفى) روى باسنـاد صحيح عن أنس بن مالك أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فى مروره بأهل النار رأى قوما لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم قال من هؤلاء يا جبـريل ؟ قال هؤلاء الـذين يأكلـون لحـوم النـاس ويقعـون فى اعراضهم ٠

ـ وفى الانشودة الرابعة والثلاثين وهى خاتمة المطاف فى الجحيم جاء أن عذاب (لوتشيفرو) ابليس فى الزمهرير والرياح المتجمدة ، كما جاء فى التراث الاسلامى (ان عذاب ابليس فى جهنم وقد سميت جهنم لبعد قعرها يقال بئر جهنام أى بعيد القعر وتحتوى على حرور

وزمهرير ، ففيها البرد على أقصى درجاته والزمهرير على أقصى درجاته ، وجاء أن أشد الناس عذابا هو ابليس بما فيها من الزمهرير الذى يقابل النار التى هى نشأة ابليس •

فى المطهر :

يصف دانتى انتقاله اليه فيقول : ولما أصبحنا هناك حيث تعترك قطرة الندى مع أشعة الشمس ، تداعبها فى مرقدها انسام الفجر ، فلا يتبخر من مائها سوى جزئيات وضع أستاذى برفق كلتا يديه الممدوتين على العشب الأخضر الناعم وحينما أدركت قصده أوليته عندئذ خدى المخضلين بالدمع وهنا أزال منى تماما ذلك اللون الذى أخفته منى أوضار الجحيم •

واستميحكم عذرا حين أقدك لكم هذه اللفتة عن اليهود فى الانشودة الخامسة عشرة (وقد شاهدهم يرجمون القديس اسطافانوس الذى نقد تعاليم اليهودية) فيقول دانتى : ثم رأيت قوما استشاطوا غضبا ، يقتلون فتى بالحجارة رجما ويصيحون فى عنف بعضهم الى بعض (فلتقتل فلتقتل فلتقتل) •

نعم : صدق دانتى فيما تصور وشاهد ، فهذا نداء الفطرة لدى اليهود يصدر عن جبلة الخسة والاجرام ، وليت دانتى حى الآن فيرى مجازر بنى صهيون فى الأرض العربية ، ويسمع النداء ـ نداء القتل وسفك الدم البرىء ، فهو شرعة عملوا بها وباركها طغاة العالم وسفاحوا القرن العشرين •

كما جاء فى الانشودة نفسها عذاب بعض الاثمين فى الدخان إذ يقول دانتى (دخان كسواد الليل يلفح الآثمين وقد ابتدأ يزحف نحونا فحرمنا من الرؤية ومن الهواء الخالص ، وفى أنشودة أخرى يقول ـ قد ابيض النور الذى يشع خلال الدخان ويجدر بى أن أرحل ، وقد جاء فى القرآن الكريم فى سورة الدخان (بل هم فى شك يلعبون ، فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس ، هذا عذاب اليم) .

وفى الانشودة السابعة والعشرين كانت الشمس آخذة فى الغروب حين سمع دانتى ملاك العفة والطهارة يتغنى بمباركة الأتقياء ، وبطلوع النهار يودع فرجيل دانتى ليسلمه الى حبيبته الأثيرة ـ بياتريتشى ـ فتتولى مهمة قيادته فى الفردوس ثم يستقبل دانتى فردوسة الأرض أولا فيصفه وصفا خلابا ويبدع فى صوره ومعالمه ، ومما يقول : فى الغابة الالهية سرت وئيدا وئيدا على الارض التى بعثت شذاهـا فى كل جانب ، وهى ذات هواء عليل لاتتبدل طبيعته أبدا وبه مالت كل الافرع المهتزة المستحية ولكنها لم تحد من موضعها المستقيم ، مما يجعل صغار الطير فوق اطرافها لاتكف عن ممارسة كل فنونها ، بل رحبت بمقرورة بأولى أنسام الصباح وقد علتها البهجة والاشراق والتى كان حنيفها ترجيعا لأغانيها . وعندئذ كانت خطواتى البطيئة قد حملتنى إلى أعماق الغابة العتيقة ، حيث المياه تنساب من ينبوع دافق دائم لايتغذى مما يكثفه البرد من ابخرة ولكنها تنال بمشيئة الله كل مايصبه . ففى هذا الجانب تهبط المياه وهى ذات فضل تمحو من الناس ذكرى معاصيهم ، وفى الجانب الآخر تعيد اليهم ذكرى كل افعالهم

الحميده ، وان مذاقها ليعلو كل مذاق .. وقد جاء في القرآن الكريم قوله سبحانه وتعالى في سورة الاعراف « ونزعنا ما في صدورهم من غل تجرى من تحتهم الانهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق ، ونودوا ان تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » .

وفي المختصر لتذكرة القرطبي : أن ابن عباس رضي الله عنهما يقول في قوله تعالى « ونزعنا مافي صدورهم من غل » ان أول مايدخل أهل الجنة يعرض لهم عينان يشربون من احدى العينين فيذهب الله تعالى مافي قلوبهم من غل ، ثم يدخلون العين الاخرى فيغتسلون منها فتشرق الوانهم وتصفو وجوههم وتعرف فيهم نضرة النعيم وزاد في رواية عن على رضى الله عنه ، فلا تغير أبشارهم ولا تشعب أشعارهم ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون لهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » .

ثم يلتقى دانتى بحبيبته بياترتيشى فتعاتبه على بعض آثام ارتكبها بعد وفاتها فتقول له : كان عليك أن تعلو اثرى سبحا حين أصابك أول سهام من سهام الأمور الخادعة التى لم أعد أنتمى اليها ، وماكان ينبغى لباطل أن يخفض الى الارض رياشك ، فان صغار الطير لتظل متمهلة عند رمية سهمين أو ثلاثة ، ولكن عبثا تنصب الشباك أو ترمى السهام على مرأى من الطيور المكتملة الأرياش .. وبعد ندم دانتى تعفو عنه وتدعوه الى الضفة المباركة فيسمع نغمة رقيقة تردد لسان حاله ـ طهرنى ـ يقول الدكتور حسين مؤنس أن هذا التطهير هو الوضوء

الاسلامى بعينه وهو الذى لم تعرفه أوربا المسيحية مطلقا .. وفى مشهد آخر يقول دانتى « هاآنذا أرى دجلة والفرات يخرجان من نبع واحد وكصديقين حميمين يتمهلان عند افتراقهما » فقد أورد صورة جغرافية عكسية حسب تصوره للنهرين فى عهده ، ويتابع خطابه للنهر قائلا : أيها النور المتألق ، ويامجد البشرية ـ هاآنذا أشرب منك وأشدو للكوثر العذب ، وقد عدت من أعظم الأمواج قدسية مولودا من جديد كالاشجار الجديدة التى تتجدد ببزوغ أوراقها وصرت طاهرا مؤهلا للصعود الى النجوم ٠

وقد جاء فى التراث العربى عن أنهار الجنة قول (كعب الاحبار) نهر دجلة نهر ماء الجنة والفرات لبنها ، ونهر مصر نهر خمرها ونهر سيحان عسلها وهذه الأنهار تخرج من نهر الكوثر .. وفى حديث الاسراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بنهرين يطردان فقال ماهذا ياجبريل ؟ فقال : النيل والفرات ٠

وفى الفروس السماوى : فى السماء القمرية : يسأل روحا راضية بدافع الحب الالهى بالحال التى هى عليها دون التطلع الى ماسواها ـ وان ارادتها متلائمة مع ارادة الله : يقول دانتى ولكن خبرونى أيها الطوباويون هاهنا . أترغبون فى مكان أكثر علوا لكى تصبحوا أقدر على الرؤية وتنالوا محبة اعظم ، فأجابت مبتهجة حتى بدت مضطرمة بأوار المحبة فى أولى نيران الحب ٠

(ان رغائبنا لترضى ياأخى بما فى المحبة من الفضل الذى يجعلنا نشتهى ماهو لدينا فحسب ، ولايثير ظمأنا لشىء سواه) . فقد جاء فى

القرآن فى سورة الاعراف « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ان قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا قالوا : نعم ، فاذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين » . وفى سورة الحجر « ان المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ، ونزعنا مافى صدورهم من غل أخوانا على سرر متقابلين » . هذا وقد جاء فى الأنشودة التاسعة فى وصف سماء فينوس . « ان هذه السماء يتناهى اليها مايصنعه عالمكم من الظلام » . متأثرا دانتى بذلك بفكرة العالم العربى (الفرغانى) الذى عاش فى القرن التاسع فى عصر المأمون ، واعتبر أن ظل الأرض يصل الى سماء فينوس . كما جاء فى الانشودة الثانية والثلاثين فى مراتب وردة السماء الموجودة فى نهاية سماء السموات (الامبريوم) قول دانتى : أرواح محررة من قبل أن يكون لها فى ذلك خيار صحيح ، ويمكنك أن تتبين هذا جيدا على وجوههم وكذلك فى أصوات طفولتهم ، اذا ما أصغيت وأحسنت النظر اليهم ، فقد جاء فى التراث الاسلامى تقسيم الجنة الى ثلاث جنات منها (اختصاص الهى ، وهى التى يدخلها الاطفال الذين لم يبلغوا حد العمل ، وحدهم من أول مايولدون الى انقضاء ستة أعوام) .

هذا وقد جاء فى الانشودة الثالثة والثلاثين وهى خاتمة المطاف فى فردوس دانتى وفى كوميدياه وصف الاله إنه من نور : قوله عندئذ اتجهنا الى النور السرمدى الذى ليس لأحد أن يعتقد أن عين كائن يمكنها أن تتغلغل فيه بمثل هذا الصفاء ، وفى قول آخر : أيها النور الأسمى الذى يشتد علوك على أفكارنا الفانية ، فقد عبر دانتى عن

الله سبحانه وتعالى بما يشابه به الاعتقاد الاسلامى فى أن الله نور سرمدى . « الله نور السموات والأرض مثـل نوره كمشـكاة فيهـا مصباح المصباح فى زجاجة ـ الزجاجة كأنها كوكب درى يوقـد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولـو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » صدق الله العظيم .

ان هذا التشابه الذى أوردته ماهو الا القدر اليسير من الفيض الكثير ، أوردت بعضا من المهم منه ، أفلا يحق للمستشرق الأسبانى (ميكال بلاسيوس) وقد انقطع الى دراسة هذا التشابه وتحليله مدة أكثر من نصف قرن أن يرفع صوته عاليا مدويا يروع الناس ويهز القلوب (لا أن دانتى لم يبتكر رائعته هذه ابتكارا ، وانما أخذها عن العرب المسلمين وعندى اثبات لذلك .. فقد نشر كتابه الأول بعد بحثه الشاق الطويل عام ١٩١٩م فكان كتابا خالدا فى تاريخ الأدب المقارن واسم الكتاب (الصور الاسلامية للعالم الآخر فى الكوميديا الالهية) وقد طبع مرارا ، ولكن منذ طبعته الاولى ومنذ اصدار حكم حيادى من قبـل قس أسبانـى وكاثـوليكى بأن العنـاصر العـربية الاسلامية اشتركت فى تأليف الكوميديا الالهية هز العالـم الفـكرى وبخاصة فى أوروبا ـ فهذا (دوق البا) يقول فى مقدمـة الترجمـة الانكليزية للكتاب (منذ ظهر الكتاب فى الاسبانية ثار عاصف من العجب والدهشة فى الرأى العام الادبى . هز نقاد تاريخ الادب ، ولو وزنا التأييد الذى لقيته نظرية (آسين بلاسيوس) مع المعارضة التى

ووجهت بها كانت النتيجة فى صالحه . ذلك لانا اذا تجاوزنا عن سيل الاتهامات والنقود المعارضة التى تدفقت خاصة من القومية الايطالية فان كثرة النقاد فى مختلف الشعوب سواء من الرومان أو العرب ومن كان حيادهم فوق الشبهات تقف بجانب نظرية (ميكال آسين بلاسيوس) كذلك قال (فردريك بك) لم يظهر كتاب كهذا عن دانتى له مثل تلك الأهمية ، وانا لنتساءل هل كان الطليان فى كبريائهم القومية يستطيعون أن يقدموا من عملهم الخاص كتابا يقف أمام كتاب هذا العالم الاسبانى .. الخ) .. وبمثل هذا التقدير قوبلت نظرية (آسين) ولا أدل على ذلك وأخطره من اعتراف زعيم الدانتيين (بواراجنا) قوله : « أنه لو صحت نظرية بلاسيوس ، فانها تؤدى الى رأى فى دانتى مخالف للرأى الحالى ـ الى حد جدير بالاعتبار » بمثل هذا التقييم الرائع جن جنون الدانتيين ـ ذلك لأن دانتى عند الايطاليين هو نصف الأدب الايطالى اذا لم نقل كله . فأنكروا انكارا شديدا نظرية بلاسيوس ، وهاجموا كتابه بعنف وقالوا وكيف ومالدينا دليل واحد على أن دانتى عرف الأدب العربى ، أو اتصل به فى أصل وترجمه . وماهو إلا قليل حتى جاء الرد : بلى ياقوم لقد عرفه ووصلت اليه قصة المعراج نفسها ، وكان القائل هذه المرة عالم ايطالى ضليع هو (أنريكوتشيرولي) فقد عثر هذا العالم على ترجمتين احداهما فرنسية قديمة والثانية لاتينية لقصة المعراج ونشرهما فى كتاب واحد اسمه (كتاب الصعود أو العروج) وفى هاتين الترجمتين نجد الصور العربية الاسلامية التى أخذها دانتى وأقام منها بروج كوميدياه . وقد نشر هذا

الكتاب فى مدينة الفاتيكان سنة ١٩٤٩ . كما قام باحث أسبانى آخر هو (ساندينو) بنشر قطعة من الترجمة الفرنسية التى تمت على أساس الترجمة الاسبانية التى عملها رجل عربى يسمى (ابرأهيم الفقيه) للملك الفونسو العاشر ملك قشتالة ، وقد قرر ذلك الفونسو العالم فى كتاب من كتبه فذكر أنه أمر بعمل ترجمة قشتالية لكتاب المعراج وأثبت (انريكو تشيرولل) فى مقال نشره فى مجلة الاندلس (مجلد ٢١ العدد ٢) أن مجلس بلدة فلورنسا أرسل سنة ١٢٦٠م (برونتولاتيني) الى أسبانيا رسوله الى الفونسو العاشر ، وأن هذا الرجل عاد الى ايطاليا بعدد كبير من الكتب مما ترجم من العربية الى اللاتينية والاسبانية ومن بينها كتاب الصعود . وكان (برونتولاتيني) هذا كما أسلفت فى الحديث عن حياة دانتى من أصدقاء دانتى وشيوخه وعلى صلة فكرية وطيدة معه فلاشك أنه حدثه بأمر الكتاب • يقول الدكتور حسين مؤنس فى مقال له أن العلاّمة انريكوتشيرولل أثبت أن أحد الموثقين أى من كتّاب الوثائق والعقود وهو ايطالى واسمه (بونا فنتوراد اسينيا) ترجم كتاب المعراج من اللاتينية الى الايطالية ، وأن هذه الترجمة عرفت فى ايطاليا وذاعت بين أهل الأدب أيام دانتى ومن دلائل ذلك أن معاصرا لدانتى هو الشاعر (فازيو دلى اوبرتى) ذكر كتاب الصعود فى شعر له يتكلم فيه عن محمد صلى الله عليه وسلم وكان يظن أن هذا الكتاب هو من مؤلفات الرسول الكريم وأنه لهذا كتاب مقدس عند المسلمين •

وبهـذا تنتهـى المعـركة العلمية التـى خاضهـا (ميجيل اسـين بلاسيوس) منذ أن قدم كتبه فى عام ١٩١٩ ، ١٩٤٣ الى عام ١٩٦١ فيخرج منها منتصرا اذ قدر له أن يثبت نظريته ويقيم أصولها بما لايحتمل الشك ، فما بال الدكتورة بنت الشاطـىء ـ عائشـة عبـد الرحمن ـ تقسو فى حكمها وتنفى نفيا باتا أى تأثير عربى اسلامى فى الكوميديا الالهية ، أبدافع من الأمانـة العلمية كما يقـال ، أم أنهـا أصدرت حكمها سريعا قبل أن ينهى بلاسيوس بحثه اذ كان ماقالته فى عام ١٩٤٩م ونهاية معركة بلاسيوس الأدبية كانت عام ١٩٦١م ، أم إجحاف عربى يضاف إلى إجحاف الغربيين ، وهل لقى العرب من الغرب إلا الاجحاف والنكران ، هم يشاهدون قممنا العالية متوجه بالشمس حضارة وعلما ولكن لايسعهم إلا بدافع الحقد والتعالى أن يتجاهلوا تلك القمم وأن يطمسوا معالمها .

ولا أدل على ذلك قول المستشرق الحاقد (ارنست رينان) مامعناه (ان كان للعرب المسلمين فى الأندلس من علم وفكر فحسبهم أن بقى القرآن منتصرا على أفكارهم) وانه يعنى بذلك ان لاشىء فى القرآن (استغفر الله) من علم وفكر : لقد سبق ابن خلدون اوغست كونت فى تأسيس علم الاجتماع بمئات السنين ، ولكن ابن خلدون هذا بعد أن بعث مجده واثبت ابتكاره ، تراجـع بعض المنصفـين فقالـوا بكلمات سطحية (له نظرات واضحة فى علم الاجتماع ، وان اشراق فلسفتنا وأمانتها فيما ضمت من كنوز الاغريق والروم والفرس والهند ومماابتكرت ومماابدعت خلال حقب كبيرة من الزمن ، لم تكن فى رأيهم الا أنها

حفظت تراث الأقدمين ونقلتها لهم ، وكم وكم من مثل ذلك حتى اذا جاء عالم حيادى يقرر مااقتبس دانتى من مناهل ادبنا وعقائدنا أنكر المنكرون وساعدهم المجحفون .

قال الدانتيون : أن دانتى لم يتصل بالعرب ولم يعرف عن المسلمين شيئا .

ومن يقرأ الكوميديا يجد أن دانتى كان متفاعلا مع العرب والمسلمين حياة وفكرا ، فقد أورد (حسن عثمان) أبو الكوميديا ومحتويها ومترجمها أن دانتى فى الانشودة الثامنة والعشرين من الجحيم قد ذكر أبياتا لم يجد حسن عثمان بدا من حذفها ولم يترجمها لأنها لم تكن لائقة بحق النبى محمد صلى الله عليه وسلم فيقول قد أخطأ دانتى خطأ جسيما متأثرا بما كان سائدا فى عصره بين العامة أو المؤلفات عن الرسول الكريم . بحيث لم يستطيع أهل الغرب وقتئذ تقدير رسالة الاسلام الحقة وفهم حكمته الالهية .. كذلك نرى دانتى يضيف ذنبا كبيرا لعدوه السياسى البابا (بونيفاتشو) لأنه لم يساعد المسيحيين فى فتح عكا آخر معقل للصليبيين عام ١٢٩١ فيصفه بالنفاق والخيانة .

كما أن دانتى لم يتورع أن يصف المسلمين بلفظة الكفران عندما يخاطب روح جده (كاتشا جويدا) فى الفردوس إذ قتل هذا فى الحملة الصليبية الثانية ، وقد لطفها حسن عثمان مبدلا إياها بكلمة (العنفوان) .

وصحيح أن الكوميديا عمارة كبيرة متماسكة متناسقة شمل رواقها الأرض والسماء وجمعت من كل علم وفن ، وحشدت من المواضيع

حقائقها وأساطيرها ومن مشاهير العالم عددا كبيرا على اختلاف الزمان والمكان ، والحقيقة والخيال فجاءت ملحمة غنية غزيرة تنوعت زخارفها وتأنقت فنونها ، ولكنها فى عمادها وهيكلها الفقرى أخذت عن العرب والمسلمين أهم الأصول التى كفلت لها أن تقوم وتشمخ عاليا علوّ ماهدفت له ٠

وتثبت مدى مساهمة الحضارة العربية فى أعظم ماتفخر به الانسانية من أعمال . وتقدم البرهان القاطع أن كثيرا من الأعمال الأدبية الأوربية الأخرى لم تكن فى جوهرها إلا أصداء متفاوتة لادابنا ، وكثيرا مما فخرت به أوربا لم يكن إلا أصلا ولدته أرحام عربية ٠

فما يضيرنا اذا تمسكنا بما أثبت رجل محايد نتيجة نضال مستمر وصراع مرير طوال عشرات السنين حتى وصل الى كلمة الحق والانصاف ، فنجهر معه ، وندعم آراءه بالتقصي والبحث ، ونغار على التراث غيرة الأم والأب على الطفل الوحيد ٠

فنحن العرب فى حقيقة واقعنا وحاضرنا نجابه معركة مصيرية مع الصهيونية ومن يتبنونها تهدف الى محونا بشريا وفكريا ، فما أحوجنا الى الصمد بكل ما أوتينا من قوة : من حرف وكلمة وقلب وساعد ، وبالله نستعين ٠

ياسر فتوى
مدرس اللغة العربية
المرحلة الثانوية
جدة

طبع بدار عكاظ للطباعة والنشر ـ جدة

طبعت بدار عكاظ للطباعة والنشر ـ جدة

